حـول قـضـيـة
أسباب ركود الحضارة الإسلامية[*]

فـؤاد سـزگـيـن

حينما كنت ألقي محاضرات في السنوات الأخيرة في جامعات البلدان العربية حول مكانة المسلمين في تاريخ العلوم عامة أو في ناحية معينة من نواحي العلوم، كان يُوجَّهُ إلي في كل مرة تقريباً السؤال الآتي :

ما هي الأسباب التي أدت إلى ركود الحضارة الإسلامية ؟

هذا السؤال بعينه كان يُوَجَّه إلَيَّ أحيانا بصورة مباشرة أو غير مباشرة من أناس مليئة قلوبهم بالشك والريب فيما يتعلق بمساهمة المسلمين في تاريخ الحضارة والعلوم، ويتضح موقفهم المتشكِّك هذا بمجرد صياغتهم للسؤال، كأن يقولوا مثلا : إذا كان للمسلمين تلك المكانة العالية في تاريخ العلوم والحضارة كما تصفون، فما هي إذن السبب في هذا التأخر الحالي للمجتمع الإسلامي ؟

إن هذا الموقف المتشكك المتشائم ناشىء عن معرفة البعض للمجتمع الغربي سواء عن طريق الاتصال المباشر أو غير المباشر، وعن رؤية الناس ومشاهدتهم الفرق الكبير الحالي بين المستوى العلمي والتقنيقي في المجتمع الغربي وبينه في المجتمع الإسلامي.

وأحيانا يوجَّه إلَيَّ السؤال من قبل أناس متمسّكين بما في تراثهم من القيم الدينية والعلمية، وهم يتألمون لما يشاهدونه من الركود في حضارتهم والتأخر الحالي الذي

(*) ألقيت هذه المحاضرة سنة 1983.

هم فيه بالقياس إلى المجتمع الغربي. إن كثيرين من الطائفة الأولى يؤمنون إيماناً مطلقاً بالقوة المنقذة والمشفية للعلوم العقلية، ومنهم من لا يرى بأساً في أن يكون للإيمان والعبادة نصيب في المجتمع، ومنهم من يرى السبيل الوحيد لرفع مستوى المجتمع في تجريده المطلق عن الدين والعقيدة وفي ترك كل عنصر ثقافي وحضاري له صلة بالدين والعقيدة وفي التوجه المطلق إلى العالم الغربي. وقد بدأ مثل هذا التيار يتبلور في بعض البلدان الإسلامية منذ أوائل القرن العشرين وسيطر على بلدي بصفة خاصة. فاستسلم الحكام إليه، وظنوا أنهم قد وجدوا العلاج الجذري الصحيح والإكسير الأعظم لخلق مجتمع جديد. ولقد مضى الآن ما يقرب من قرن على تجربة العلاج، إلا أن معظم المعالجين قد بدأ يساورهم الشك في صحتها وأثرها، ولذلك اضطروا إلى أن يلتمسوا سبيلا آخر. إن هذا اليأس وخيبة الأمل قد تحول عند الكثيرين إلى عقدة نفسية أدت إلى نفور مما تمسكوا به وآمنوا به من التجربة الأخيرة، بل وأحيانا إلى انتقام منه. ويسرت أسباب أخرى للشيوعية ألا تتأخر عن مد أيديها كالمنقذة النهائية. إن التعليل الوحيد عند أصحاب هذه الطائفة لتأخر المجتمع الإسلامي هو الدين الإسلامي نفسه في الماضي وفي الحاضر، هذا من جانب.

ومن الجانب الآخر يرجع كثير من المحافظين السبب في تأخر المجتمع وركود الحضارة الإسلامية إلى وهن التمسك بالدين وعدم تطبيقه التطبيق المطلق على جميع نواحي الحياة.

وبين هاتين الطائفتين يوجد كثير من الناس الذين يتجنبون كلا التعليلين وهم متحيّرون، وكثيرا ما يميلون إلى اتباع المتساهلين الذين يرجعون أسباب الركود إلى ما يحصل من فساد أو تأخر في مؤسسة من المؤسسات في المجتمع الإسلامي أو إلى تدخل عنصر من العناصر الأجنبية فيه.

أرى أنكم تنتظرون مني جوابي أو تعليلي الخاص كما يقتضيه عنوان محاضرتي. وإني لأعترف لكم بأنني كنت أتحرج حينما كان يأتي نفس السؤال أثناء محاضراتي السابقة، وكنت أعتذر بأن ذلك يحتاج إلى وقت أطول، وكنت أعد بتأدية هذه المسؤولية في أقرب فرصة ممكنة إن شاء الله.

أيها المستمعون الكرام ! أرجو منكم في بدء محاضرتي ألا تنتظروا مني الحل النهائي للقضية، أو حلاً مّا يوشك أن يكون نهائيا. وليس عرضي للقضية عليكم إلا محاولة مؤرخ لتاريخ العلوم تيسرت له دراسة التراث العربي والإسلامي أكثر من ثلاثين سنة، يريد أن يعالج القضية في ضوء صلته الخاصة بهذه العلوم، بعد الوقوف على معالجات القرن الحديث لها منطلقا من المبدأ القائل بأن التعليل الصحيح لا يتيسر إلا بعد تصوير شامل صحيح لتاريخ العلوم العربية الإسلامية لنستطيع أن نعرف بكل وضوح العناصر البناءة والمكونة لها التي ربما بدأت تضعف أو تزول في وقت معين، والعناصر الهدامة والمتخلفة التي ساهمت بمرور الزمن في بطء التطور في المجتمع الإسلامي والانتهاء به إلى الركود.

إن النقاش حول القضية ليس بجديد. لقد تناولها المسلمون والمستشرقون كثيراً وازداد الاهتمام بها خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. لقد انعقدت ندوة علمية في مدينة فرانكفورت في سنة 1956 حول موضوع «قضية تقليد الطراز الكلاسيكي والانهيار الثقافي» «Klassizismus und Kulturverfall» فعالج إثنا عشر عالما الموضوع فيما يتعلق بالحضارات المختلفة ومن بينها الحضارة الإسلامية. ثم تبعت تلك الندوة بعد شهور ندوة أخرى في مدينة بوردو Bordeau بفرنسا عقدت خصيصا لمعالجة هذا الموضوع في الحضارة الإسلامية بعنوان «تقليد الطراز الكلاسيكي والزوال الثقافي في تاريخ الإسلام»(1)، فساهم تسعة عشر عالما ببحوثهم في معالجة القضية. حاول كل منهم أن يعتني بناحية معينة من العلوم أو الحضارة الإسلامية، ويصور ما تبين له من أسباب الركود ومراحله، وكذلك ناحية التفكير الديني والفقه الإسلامي، وناحية الفنون الإسلامية، وفي التصوف والفلسفة والعقيدة، وفي الأدب العربي، وفي العلوم الطبيعية. ولم يزعم أحد من هؤلاء العلماء بأنه أتى بتعليل نهائي. هناك مشاهدات قيمة وملاحظات هامة، وهي ثمرة اشتغالهم الطويل بالنواحي المختلفة لتاريخ العلوم والحضارة الإسلامية. فعلى القارىء المسلم أن يقرأها ويستفيد منها دون أن يكون مضطراً لقبولها كلها أو بعضها، ودون أن ينتظر

---

(1) Classicisme et déclin Culturel dans l'histoire de l'Islam. Actes du Symposium international d'histoire de la civilisation musulmane. (Bordeau).

أن تكون الآراء المسرودة كلها مصيبة أو تتفق تماماً مع شعور المنتمين إلى الحضارة الإسلامية.

إنني لا أستطيع هنا أن ألخص أفكار هؤلاء العلماء ولا أناقش صحتها بالتفصيل. ولكنني أرى ضرورة الإشارة إلى نقطتين :

فالأولى : هي أن الواقع الهام لنقاش القضية عامة يصادفنا في عروض هؤلاء العلماء أيضاً، ذلك أنه يحدث غالباً خلط بين العلل والأعراض، وهذا فارق مميز في معالجة قضيتنا بصفة عامة. إذ يتضح أن معظم ما يعتقد الباحث أنه علة من علل الركود للحضارة الإسلامية هو في الحقيقة وبعد الإمعان فيه ليس علة وإن كان يشبه العلة، وإنما هو عرض من الأعراض.

ثانيهما : أن مكانة العلوم العربية والإسلامية لم تعرف أو توضح في تاريخ العلوم العام بعد. وبالرغم من أن المستشرقين اكتشفوا شيئاً كثيراً من إنتاجات المسلمين الهامة في مختلف نواحي العلوم، إلا أن العرض القديم المعتاد الموروث منذ قرنين أو ثلاثة قرون لمؤرخي العلوم لم يتغير تقريباً، كما أنه لم يتكون بعد تصور صحيح وشامل لمكانة المسلمين لا في ناحية معينة وإنما في تاريخ العلوم عامة. ونتيجة لذلك فإن قياسها بإنتاجات وحضارات الأمم الأخرى لا يكون صحيحاً وخاصة بما للإغريق. ذلك أن التراث الإغريقي قد وجد مكانه في تاريخ العلوم بعدما صقل ونظم وعرف أولا على ذوق محبيه، وبعدما جرد الغث من السمين. من أجل ذلك لا تكون ملاحظات المختصين بالعلوم الإسلامية لمواضع الضعف والقوة، والعناصر البناءة والهدامة غالباً صحيحة أو مصيبة. أريد بهذه المناسبة أن أقدم لكم أحد التعاليل التي سردها المستشرق الكبير هلموت ريتر لقضية ركود الحضارة الإسلامية :

إنه يتساءل : «ما هي مهمة العالم المسلم ؟ هي نقل ما علمه أساتذته إياه إلى الجيل التالي على أكمل وجه من الصحة والوفاء. وما هي هذه المهمة عندنا ؟ حينما كان يريد مجلس الأساتذة لإحدى كلية الآداب أن ينتخب مرشحا لكرسي الفلسفة، حدث أن رفض هذا المجلس ترشيح تلميذ من تلامذة فيلسوف ألماني

شهير بحجة أن ذاك التلميذ لم يأت بشيء جديد للفلسفة بالمقارنة بأستاذه، لأنهم كانوا يريدون مطلقاً أن يجدوا زميلاً قد جاء بشيء جديد طريف. إن موقف الكلية هذا منوط بفكرة أساسية ألا وهي : لا توجد حقيقة مستقرة نهائية. أما الظن ربما أن ذاك الفيلسوف قد وصل إلى الحقيقة النهائية، فلا يمكن أن يخطر بأذهانهم. إن مفهوم الحقيقة للعصر الحديث تصاعدي مبدئيا، هو يسمو باستمرار إلى ما فوق المعروف. أما هذا المفهوم في الأرثوذُكسية الإسلامية (يقصد : الاتجاه السني، أهل السنة) فشيء ثابت نهائي ومستقر. وفي العالم الغربي تسيطر ضجة ذهنية دائمة، أما في الشرق فتسود الطمأنينة المعتادة الخاصة به التي عبر (چوته) عن اشتياقه إليها آحيانا. إن عدم تبدل العقلية الشرقية يبدو في أعيننا جموداً. ولكن الأرثوذكسية الإسلامية ترى المستحدثات بدعة مشكوكاً فيها ومثيرة للريب. هي تعتبر عهدا مّا متدهوراً لأنه قد تغير بالنسبة للقديم المثالي، بينما نعتبر نحن عهدا من العهود متدهورا لأنه لم يتغير».

هذه بعض ملاحظات لعلامة ألماني عظيم قد عرف شيئاً كبيراً عن التراث العربي والإسلامي وساهم في تعريفه للآخرين كثيراً، وكان يحبه ويحترمه، وإنني بصفتي تلميذه ومدين له بشيء كثير لا أظن أنني أظلمه إن قلت إنني أتصور أن أستاذي هذا الذي استطاع أن يكتشف في ناحية الأدب والبلاغة إنتاجات للعلماء العرب في منتهى الأهمية لم تكن لديه نظرة شاملة على التراث العربي والإسلامي بأكمله، وأظن أنه كان يتمسك بأقصوصات ونوادر واردة في تراجم الرجال أكثر من اللازم. لقد استنتج في عرضه لقضية ركود الحضارة الإسلامية أحكاما لا تتفق مع كثير مما يتبين إلى الآن من موقف العلماء المسلمين السائد وثقتهم في مقدرتهم على الإتيان بجديد في تاريخ العلوم واعتمادهم على قدرة العقل البشري. لقد تيسر لي أن أعترض على أستاذي المنصف في ملاحظاته هذه بذكر أمثلة آتية : فكان جوابه أن قال : «أستغفر الله لما جاء بذهني فأعجبت بجماله وصحته، وما كان هذا إلا من النفس الأمّارة» لقد ذكرت له شيئا عن كلام جابر بن حيان الذي عاش في القرن الثاني الهجري، عن مبدئه فيما يتعلق بمدى العلم البشري. كان جابر بن حيان يرى أن الإنسان لا حدّ له لزيادة علمه واكتشافاته، وأن عليه أن يجتهد في اكتشاف أسرار الخليقة كلها، وقد أعطيت له المقدرة على كشف

كل ما وراء العالم من الأسرار، مع أن أرسطوطاليس كان ينكر مثل هذه المقدرة للبشر.

وهذا جابر ربما كان أكثر من آمن بأن عالمنا الفيزيائي والروحي مؤسس على قانون رياضي شامل، وكان يؤمن بأن كل الموجودات في العالم وأفعالها قابلة للقياس بالعدد، وكان يقول : «إن استطعنا أن نعلل خواص الأشياء عدديا فإننا نكون قد أرسينا الأساس الصحيح لعملنا في العالم الكيميائي، وعلى هذا الأساس يكون مبدأ القياسية للأشياء أي مبدأ ميزان الحتمية الرياضية للأشياء في العالم. وهذا المبدأ يبين النظام المعقول للأشياء وانسجامها وهو يظهر في كل شيء من جهة، كما أنه المدلول الأساسي المجرد للعالم من جهة أخرى... الخ».

وذكرت له مما قال ابن الهيثم في مقدمته لكتابه «في الشكوك على بطليموس» ما يلي : «الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده، ووجود الحق صعب، والطريق إليه وعر، والحقائق منغمسة في الشبهات، وحسن الظن بالعلماء في طباع جميع الناس، فالناظر في كتب العلماء إذا استرسل مع طبعه، وجعل غرضه فهم ما ذكروه وغاية ما أوردوه حصلت الحقائق عنده وهي المعاني التي قصدوا لها، والغايات التي أشاروا إليها. وما عصم الله العلماء من الزلل ولا حمى علمهم من التقصير والخلل، ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم ولا تفرقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور والوجود بخلاف ذلك. فطالب الحق ليس هو الناظر في كتب المتقدمين، المسترسل فيهم، المتوقف فيما يفهمه عنهم، المتبع الحجة والبرهان لا قول القائل الذي هو إنسان، المخصوص في جبلته بضروب الخلل والنقصان، والواجب على الناظر في كتب العلوم، إذا كان غرضه معرفة الحقائق أن يجعل نفسه خصما لكل ما ينظر فيه، ويجيل فكره في متنه وفي جميع حواشيه ويخصمه من جميع جهاته ونواحيه، ويتهم أيضا نفسه عند خصامه فلا يتحامل عليه ولا يتسامح فيه. فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق وظهر ما عساه، وقع في كلام من تقدمه من التقصير والشبه»[2].

وذكرت له أيضا قول البيروني في مقدمته للقانون المسعودي :

---

(2) مقالة للحسن بن الهيثم في الشكوك على بطليموس، طبع القاهرة، ص 3، 4.

«وانما فعلت ما هو واجب على كل إنسان أن يعمله في صناعته في تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة، وتصحيح خلل إن عثر عليه بلا حشمة.... وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده»[3].

ربما يخطر في ذهن بعضكم أن مثل هذه الأفكار أو أصحابها في تاريخ التفكير الإسلامي شيء نادر، لهذا أرى من الضروري أن أبرز بصفة خاصة أولا أن ظهور هذه الأفكار والأشخاص لا يمكن أن تكون وليدة المصادفة وبدون بيئة مناسبة وظروف مهيئة، وثانيا أنها في الواقع ليست من النوادر، بل تيسر ظهورها في المرحلة البناءة في جميع نواحي العلوم باستمرار وبوفرة. ولكن تاريخ العلوم إما أنه لم ينتبه إليها أو أنه عاملها بإهمال وتجاهل. اسمحوا لي هنا بأن أذكر لكم واقعة لا أنساها منذ ثمان عشرة سنة : فقد كنت أسمع صدفة في ألمانيا محاضرة من الراديو لأحد زملائي المستشرقين الألمان حلو البيروني، وبعد مدحه وتعظيمه إياه كان تعليقه أنه لا يمكن بطبيعة الحال أن نتوقع في التفكير الإسلامي نماذج العلماء المعروفة في عصر النهضة.

إنني لا أريد أن ألوم زميلي على قوله هذا لأنه بالرغم من اتصاله العام بالتفكير الإسلامي كان لايزال محروما من حكم تاريخ العلوم العادل على مساهمات البيئات المختلفة في تاريخ التفكير الإنساني المشترك، وكانت ذاكرته لاتزال حاملة ما قرأه وقرأناه في المدارس من التاريخ المتصنع للعلوم والحضارات.

يا أيها المستمعون الكرام ! ليس الهدف من محاضرتي هذه أن أتكلم عن مكانة المسلمين في تاريخ العلوم، ولا يسرني أن تكون مكانة المسلمين في تاريخ العلوم مجرد وسيلة تفاخر عند أحفادهم. ولكنني أريد أن أقول إن دراسة وبحث تاريخ العلوم العربية والإسلامية بالنسبة للمنتمين إليها اليوم قد أصبح أمرا ضروريا لهم، ذا أثر حيوي عليهم، ولابد منه لكي يعرفوا أولا كيف ابتدأ آباؤهم بالعلوم وإلى ما وصلوا إليه، وبأي اجتهاد واستمرار وبزهد حقيقي وصبر وإنصاف لأعمال السلف، وتسامح وفهم واضح لقضية تطور العلوم وثقة بالنفس، واعتماد واسع على ما أعطى الله للبشر للإحاطة بسر الخليقة، وأخلاقية للنقد ليجدوا في سيرة

(3) جـ 1، ص 5 من طبعة حيدرأباد 1954.

الأسلاف أسوة حسنة وعبرة مؤثرة ومثمرة، ولينقذوا مما حصل عند بعضهم من العقدة النفسية بمواجهة تطور العلوم الحديث الذي لا يقل نصيب آبائهم فيه عما للأقوام الأخرى، وبذلك يمكنهم أن يلاحظوا قضية ركود العلوم الإسلامية في ضوء دراسة تاريخها الصحيح.

نعم، إن تاريخ العلوم لا يُخَلِّي عندنا الشك أن ظاهرة الركود بدأت تحسّ تدريجيا في العالم الإسلامي في أوائل القرن التاسع الهجري. إن قضية تسجيل أسباب ركود الحضارة صعبة جدّا. ولكن ظاهرة الركود واقع تاريخي قد تجلت وازدادت بمرور الزمن. ربما يكون منهجا سليما ــ كما يبدو لي ــ أن نقارن مرحلتي التطور والركود بعضهما ببعض ونحاول أن نعرف ما زال من العناصر البناءة، وما دخل من العناصر الهدامة التي ساعدت على خفض سرعة التطور حتى توقّف. إن مثل هذه المقارنة لا يتم إلا بعد توضيح عميق لتاريخ العلوم العربية والإسلامية مع مساهمة التاريخ السياسي والاقتصادي. طالما بقيت معرفتنا محدودة والدراسة غير متقدمة لتاريخ العلوم العربية والإسلامية فإن تحليلنا سوف يبقى بالضرورة في مجال التخمين والفرضيات ولا يتعداه. فالضرورة تقتضي إذن أن نبتدىء به دون أن نخاف من الاصطدام بالواقع مهما كان مؤلما.

وفي رأيي يجب أن يشار إلى واقع حضاري مهم ــ أثناء بحثنا لقضية الركود ــ أن العلوم العربية والإسلامية بدأت تنتقل إلى العالم الغربي منذ أواسط القرن الرابع الهجري، وقد تم ذلك بعدما تهيأ المناخ هناك بالاحتكاك البشري الضروري. واستمر انتقال العلوم العربية والإسلامية إلى العالم الغربي المسيحي أوائل القرن التاسع الهجري. ومعنى هذا الواقع هو أن العلوم العربية والإسلامية قبل منتصف مرحلتها البناءة المبتكرة قد وجدت نمواً آخر لتطورها في بيئة أجنبية، استمرت في تزويد اكتشافاتها الأخرى لهذه البيئة الجديدة إلى أن أصبحت هذه بناءة مبتكرة بعد قرون. إنكم تعرفون أن هذه النشأة وهذا الاستمرار للعلوم العربية والإسلامية في البيئة الجديدة قد أنكرها تاريخ العلوم العام بتسميتها «عصر النهضة» وقد اعتاد أن يطلق عليها ــ ربما ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر ــ استيقاظ العالم الغربي المسيحي على إثر العلوم الإغريقية، وأن يقال إن مذهب العقل الإغريقي هو الذي

أعطى للإنسان في أواخر القرون الوسطى الاعتماد على عظمة القوة العقلية الموهوبة له.

إن هذه الفكرة المصطنعة المختلفة المبنيّة على تحريف الحقائق التاريخية قد جعلت الاعتراضات في العالم الغربي نفسه تتقوى. لقد دفع ذلك الفيلسوف الفرنسي المعاصر ايتيين جلسون Etiénne Gilson في كتابه سنة 1955 إلى تسمية تلك النهضة المزعومة بعبارة «نهضة الأساتذة الجامعيين». «وهو يرى أن معنى النهضة ليس مطلقا بفرضية تاريخية يحكم على درجة صحتها بواسطة الوقائع، بل إنها وجهة النظر المبدئية ولأجل هذا لا تحتمل المناقشة. وليست الوقائع هي التي أملت المبدأ الأساسي، ولكن هذا التعريف للنهضة ينشأ من أعماق العواطف التي تملأ منها الوقائع....» ويقول جلسون أيضا : «في مقابل الواقع التاريخي الذي يستبعده الإنسان أو يطرحه جانباً ينشأ واقع آخر مصطنع مزور يختلقه الإنسان، ثم مايزال يشرح ويؤول إلى أن يعتمد عليه في استنكار الوقائع الأخرى كلها التي لا توافق البناء الوهمي»(4).

وبعد هذا الاستطراد أرجع إلى موضوعي الأساسي وأكرر أن العالم الإسلامي هيأ على هذا النحو في العالم الغربي المسيحي تمكن استمرار العلوم في هذا العالم الأجنبي من جهة، وساهم من جهة أخرى — إلى جانب بعض الأسباب السياسية والدينية والاقتصادية والعسكرية الهامة — في تهيىء ركود حضارته وزوالها. نعم لا نستطيع أن نرجع الأسباب المهيئة للركود إلى هذا المنشأ الخارجي تماما. لاشك أن هناك أسبابا داخلية متعددة مثل الاختلافات المذهبية، والاضطرابات الشديدة الموجهة من جهة المغول في شرق العالم الإسلامي، ومن البرابرة في غربه، وصولات الصليبيين المستمرة الطويلة قد أثرت أثرا سلبيا على استمرار التطور العلمي المعتاد، هذا إلى جانب زوال حماية العلم والعلماء، ومحو الكتب، وانقطاع الصلة المستمرة بين العلماء والجامعات، وانتقال الاكتشافات الهامة من جانب إلى جوانب أخرى في العالم الإسلامي.

---

(4) E. Gilson, Heloise und Abelard. Zugleichcein Beitrag zum Problem vom Mittelater und Humanismus. Freiburg, 1955, S. 98 ; H. Schipperges, Ideologie und Historiographie des Arabismus, Beiheft zu Sudhofts Archiv, Wiesbaden 1961.

أريد أن أشير هنا إلى الاسهام المهم مثلا من ناحية علم الفلك، لقد كان الفلكيون المسلمون في الشرق في القرنين السابع والثامن يهيئون بنظرياتهم الجديدة لانهيار النظام البطليموسي مع أن زملاءهم في العالم الإسلامي الغربي كانوا يأتون في القرن السادس بنظريات أخرى جديدة ضد نفس النظام المذكور دون إمكان وصول هذه النظريات من جانب إلى الجانب الآخر. ولكن هذه النظريات الجديدة كلها كانت تصل في سنوات معدودة إلى العالم الغربي وتطور لا التفكير الفلكي وحسب، بل التفكير الفلسفي والفزيائي. يجب أن يلاحظ بصفة خاصة أن تاريخ العلوم الإسلامية قد شاهد في هذين القرنين قبيل مرحلة الركود بالذات اكتشافات عظيمة وعديدة تبشر بمجيء مرحلة جديدة في التفكير الإنساني في جميع نواحي العلوم التجريبية والفلسفية تقريباً. ولكن الظروف التاريخية كانت تفرض عليها أن تبقى محلية في العالم الإسلامي، بينما كانت تنقل بسرعة إلى البيئة الأجنبية لتجد فيها الآخذين والعاملين بها وإن كان أولا بطريقة التقليد أو الانتحال حتى تنتج ثمرتها هناك فيما بعد.

وهكذا كان الأمر في القرن السابع والثامن الهجري إلى أن جاء العثمانيون وأسسوا الدولة العثمانية العظيمة التي حكمت قسما كبيرا من العالم المسكون في القرن التاسع كما تعرفون. إن عظمة العثمانيين المخيفة كانت عبارة عن تركيز أخير لقوى العالم الإسلامي. إن هذا التركيز للقوى الموروثة من ماض مجيد قد مكنهم من أن يظهروا كأكبر قوة في العالم في القرنين التاسع والعاشر. ولكنهم لم يكونوا يعرفون، بل كان مستحيلا أن يعرفوا أن هذا المجد الذي دام طيلة هذين القرنين سيكون بداية مرحلة لأعدائهم سوف يتمكنون فيها من أن يسبقوهم وينحّوهم عن مكانتهم في العلم والسياسة..

صحيح أن العثمانيين ورثوا العلوم الإسلامية والعربية ومؤسسة الجامعات من أسلافهم المسلمين ولم يهملوا الاعتناء بها. أما الواقع التاريخي وهو أن العلوم التي وصلت إليهم كانت قد أدركت ــ منذ ما يقرب من قرن ــ مرحلة الركود والزوال، فهذا ما لم يشعر به العثمانيون، وكان هذا صعب في نظرهم في ذاك الوقت. وبينما كان الشعور بالأولية والولوع في ميدان العلم قد تطور في العالم الغربي المسيحي وأصبح هذا الموقف مشجعا للناس على مناهضة العرب بصورة

وضحت منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، يتكون لدى الباحث الانطباع أن أعلى مرتبة من العلوم كان العالم الإسلامي يسعى منذ القرن التاسع الهجري إلى الوصول إليها عبارة عن مجرد الإحاطة والاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من تراث الأسلاف، وقليلا ما يصادف الباحث عند المسلمين، ابتداء من ذلك الوقت، الشعور الواضح بضرورة تطوير هذا الميراث تطويرا جوهريا. قد مضى القرنان على العثمانيين أثناء مهمتهم أن يحكموا القسم الكبير من العالم عسكريا، ثم بدا لهم الوهن والضعف في النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية، فحاولوا أن يغيروا بطريقتهم الخاصة وأن يجددوا بعض المؤسسات، ولكنهم لم يكن في مقدرتهم أن يروا بوضوح أن هذا التأخر مرجعه في الأصل إلى تأخر العلم وانحطاط مستوى العلماء. أو بتعبير آخر : انهم بدأوا يرون الأعراض دون العلل.

إن القرون الثلاثة الأخيرة شاهدت محاولات عديدة للتجديد أو التجدد بتعبير العثمانيين بالنظرة السطحية إلى الأعراض دون التعليل، وهذه بطبيعة الحال معالجة غير صحيحة. إن أوسع وأجرأ تلك المحاولات قد جرى في بلدي في النصف الأول من هذا القرن كما تعرفون، بعدما تبلور الفرق الشاسع بين العالم الغربي والعالم الإسلامي، آمن المجددون الأتراك بضرورة ترك معظم ما هو قديم وتبديله بما هو أجنبي حديث. وكثيرون منهم استطاعوا أن يروا الآن أنهم لم يحققوا نجاحا. ولكنني لا أظن أنهم قد أدركوا أنهم في تعليلهم مخطئين وأن معالجتهم من هنا قد حكم عليها منذ البداية بالإخفاق.

والآن وقد اتسع مفهومنا لما حل بنا وما حل بمكانتنا في العالم الحضاري فنحن مضطرون أن نرى الواقع ولا نخاف من النقد الذاتي وأن نجري وراء التعليل الصحيح. إن محاولة مجرد التقليد المطلق للأنظمة والمؤسسات الأوربية لم تؤد ولن تؤدي إلى النتيجة المطلوبة، بل بالعكس — كما أشرت إليها في بدء كلامي — إلى اليأس والفوضى إلى حد بعيد. ولكن أصحاب مبدأ التمسك بالماضي يجب عليهم ألا يتناسوا أن كثيرا من الأنظمة الإسلامية أصبحت قديمة وتأخرت مثل محتوى الخطب والمواعظ في المساجد، أصبحت عديمة الأثر في السامعين، لأن الخطيب والواعظ لا يملك المستوى العالي من العلم ليستطيع أن يحدث التغيير الإيجابي ويرفع المستوى العلمي في المجتمع كما كان في الماضي القديم. إنني لا أقصد

أن أقول إن هذا الواقع يسري على قرننا هذا فقط، بل إن دراسة القرون الأخيرة للعالم الإسلامي من وجهة النظر الثقافية تبين أن هذه المؤسسات الإسلامية ابتدأت تفقد حيويتها للمجتمع منذ القرون الأخيرة، وأن العالم المسلم الذي كان يعظم شأنه في القرون الأخيرة كان في الحقيقة دون مستوى الأسلاف بكثير في سعة وعمق علمه ومقدرته على الابتكار.

أذكر هنا مثالا : أن الشعب التركي احتفل قبل ثلاث سنين بميلاد عالم اسمه إبراهيم حقي الأرضرومي كان توفي منذ مائتي عام (1186هـ) وخاصة بتقدير عظيم لكتابه المشهور المسمى «معرفتنامه» لأنهم يعتقدون أن هذا الكتاب لا يلخص جميع العلوم الإسلامية وحسب، بل يحتوي على بعض اكتشافات هامة للمؤلف. وفي الحقيقة لا يصعب على مؤرخ العلوم الإسلامية أن يرى بعد قراءة سريعة للكتاب نفسه أنه تجميع لبعض المصادر التي تمكن المؤلف من الاستفادة منها، وأن المؤلف لم يكن يعرف وكان مستحيلا أن تكون لديه في مثل ذاك الوقت فكرة واسعة المستوى الحقيقي الذي وصل إليه المسلمون في العلوم، وأنه لا يوجد في كتابه هذا أي شيء من الابتكار عنده.

وأخيرا أقول بكل إجمال : إن الركود في الحضارة الإسلامية إن أردنا أن نعلله بتعليل عام فلابد أن نعتبره واقعا تاريخيا حصل لكل حضارة في التاريخ. إن المهم للمنتمين إليها والذين يريدون أن يأخذوا مكانة في المستقبل تناسب ماضيهم أن يصلوا إلى التعليل الصحيح للركود وإلى التحليل الواقعي للمؤسسات الموروثة، وأن يجرؤوا على أخذ ما هو صالح من التراث البشري الحاضر دون مجرد التقليد. إن هذا أمر صعب جدّا لا يحصل بنفسه ولكنه متوقف على وجود المثقف الحقيقي والعلماء ذوي المكانة العالية.

لقد جاء الحين أن يرى المجتمع الإسلامي مهمته الكبرى في تدبير الحصول على مثل هؤلاء المثقفين والعلماء. من هنا يبدأ واجب المثقف المسلم المعاصر ليمكن تحقيق هذا الهدف العالي السامي للمجتمع. ويجب أن يكون هذا المثقف المسؤول مستمدا للتضحية بما تعود عليه من المادية والأنانية والاسترخاء، ولا ينسى نصيبه من الزهد الحقيقي الضروري، ليهيىء لنهضة علمية عميقة وواسعة.